كلية الآداب و العلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس

مسلك التاريخ والحضارة : الفصل السادس

تاريخ الأديان

علي واحدي

العقائد والمعبودات الفينيقية بشمال إفريقيا

تضمنت الوثائق الفينيقية، ولاسيما الألواح الفخارية برأس شمراء معلومات غزيرة عن الدين الفينيقي خلال الألف الثاني ق.م. كما قدمت النصوص التوراتية والمصادر الإغريقية فكرة عن تطور الدين الفينيقي خلال الفترة المتراوحة بين مستهل الألف الأول ق.م والفترة المتأخرة من التاريخ الفينيقي. وكان من آلهة الفينيقيين خلال العصور القديمة الإله إيل داجون وخصائصه الإشراف على مجاري الأنهار والتنبؤ بالمطر وقرينته عشيرات البحر المسماة إيلات. ويليه بعل، ويتولى أمر القمم والعاصفة والرعد والمطر الجالب للخصب. وكانت أنات، وهي محاربة عذراء، من أكبر الأرباب المذكورة بملامح رأس شمراء. هذا فضلا عن عشتروت وشمش، إله الشمس، ورشف إله الجيوش، وموت إله الموت... إلخ. وقد كان جوهر الديانة الفينيقية خلال تلك الفترة قائما على فكرة الخصوبة، وعكس اهتمامات الفينيقيين الزراعية. إذا كانوا يتوسلون للأرباب بأن تمنحهم القوت، ولذلك كان لابد من تنظيم أعياد دينية تواكب تغيرات الفصول والحياة الزراعية كمواسم الزرع والربيع والحصاد والبيع وجني الثمار.

ونقلت المصادر الإغريقية واللاتينية معلومات مهمة حول الدين الفينيقي في الصورة التي كان عليها في العصور القريبة، وتضمنت أسماء عدد من الآلهة التي وردت في ملاحم رأس شمراء. ومن ذلك فكرة الدين الفينيقي حول خلق العالم وأصل الآلهة والأبطال الفينيقيين المؤهلين. بيد أن النصوص الإغريقية بالخصوص نقلت أسماء الآلهة الفينيقية لا بذاتها، بل بأسماء الآلهة الإغريقية التي تقابلها. فقد عمدوا إلى قياس هوية آلهة المجمع الفينيقية على هوية آلهتهم الخاصة مما حجب أسماء آلهة الفينيقية.

وهناك آلهة فينيقية كثيرة، والبارزون منها هم الآلهة الكبرى المذكورة في الروايات التاريخية. فقد كانت في كل المدن الفينيقية آلهة صغرى، أو عبادات محلية لا يعرف عنها إلا القليل.

وتدريجيا سيطرت بفينيقيا الآلهة الكبيرة مثل بعل الذي شاعت عبادته وانبثقت عنه آلهة كثيرة. لأنه كان لكل مدينة أو منطقة بعلها، مثل بعل صافون وبعل صور وبعل لبنان...إلخ. ومن أربابهم المشهورة كذلك هناك ملقارت، إله المدينة، وقد قابل الإغريق بينه وبين هرقليس. ويعد من أقدم الأرباب بصور، فقد روى كهنتها لهيرودوتوس بأن معبده بُني قبل حوالي 2300 سنة من تاريخ زيارة المؤرخ الإغريقي للمدينة، أي حوالي 2700 ق.م. كما أشار إليه فيلون البيبلوسي من ضمن الأرباب التي نسجت حولها الأساطير الفينيقية. وتحدث فلافيوس جوزيف نقلا عن ميناندر الأفسوسي عن بناء معبد ملقرت من طرف أحيرام(980-936 ق.م) ملك صور خلال بداية الألف الأول ق.م. وهناك نصوص تاريخية تبين أن عبادته استمرت بصور إلى غاية فترة متأخرة. وكان يقام له عيد سنوي كبير في المدينة. وقد اكتسب فيها بعد صفة الرب البحري، وأصبح لصيقا بحركة التوسع الفينيقي نحو غرب البحر المتوسط، وكان ريشيف، أو المضيء، من أكبر آلهة الفينيقيين، وقد ماثل الإغريق بينه وبين الإله أبلون. ويعد رشف من بين أقدم الأرباب بالساحل السوري الفلسطيني، حيث ترجع دلائل عبادته بإبلا إلى الألف الثالث ق.م. أما إشمون، فكان من بين الأرباب المعروفة في فينيقيا خلال الألف الأول ق.م، وانتشرت عبادته بالخصوص في صيدا، وكان له معبد بالمدينة أرخت أطلاله بالقرن 5 ق.م، وكان ربا مانحا للحياة. ثم هناك الرب أدونيس الذي شاع إسمه عند الإغريق دون أن يقع ذكره في النصوص الفينيقية المعروفة. وقد شخص على هيئة شاب قتله خنزير وحشي كان يصيده، وهو من أرباب الزراعة، وروح النباتات. وكانت عشتروت، وهي تقابل أفروديت عند الإغريق، إلهة كبيرة في البلاد الفينيقية وفي المناطق التي استقروا بها خارج فينيقيا، وهي ربة الخصب والأمومة. فقد ورد اسمها في أقدم الوثائق الفينيقية العائدة إلى منتصف الألف الثاني ق.م ولاسيما بألواح رأس شمراء ورسائل تل العمارنة وفي الأساطير الفينيقية التي نقلها فيلون البيبلوسي وفي النصوص التوراتية. وكانت ربة كبيرة في صور حيث بنى لها أحيرام معبدا خلال الألف الأول ق.م، وظهرت خلال القرن 7 ق.م من بين الأرباب الصورية التي باركت المعاهدة الموقعة بين أسرحدون الآشوري وبعل ملك صور.

وإلى جانب الأرباب المعروفة بأسمائها وخصائصها قدس الفينيقيون قوى الطبيعة مثل الجبال والينابيع والأشجار وغيرها. وكانوا يشيدون معابدهم في قمم الجبال وقرب الأنهار. وقد عرف الفينيقيون أيضا بتقديس الصخور، فجعلوها متعبدا أو مقرا لآلهتهم يسمونها بيتيل، أي بيت الإله، وهي عبارة عن صخور تكون في العادة مخروطية الشكل، و توضع في مذبح ليقف أمامها المتعبدون. ولا زالت بقاياها شاهدة إلى الآن في معبد بيبلوس، مثلما ظهرت صورها على العملة الفينيقية المنتمية للعصر الروماني.

وكان من عادة الفينيقيين تنظيم أعياد دينية على شرف آلهتهم كان من أهمها عيد أدونيس الذي كان يخلد ذكرى موت الرب. وكانت تتم خلاله محاكاة لجنازة حقيقية تخلد موت أدونيس، وتشهد طقوسا حزينة، إذ تملأ الميادين العامة بالنواح والغناء الحزين حتى أن بلوتارك روى أن الأسطول الأثيني حين خرج في حملة إلى صقلية كان النواح المرتفع في كل مكان بمناسبة الأدونيات أمرا أرعبه رعبا شديدا. واشتهر بفينيقيا أيضا عيد آخر، هو عيد ملقارت بصور التي كان أهلها يعتقدون بأنه مؤسس مدينتهم. وفي ذكرى موت ملقارت كانت صوره تحرق في حفل ديني كبير.

كانت العبادات الفينيقية تتم في الهواء الطلق أو في معابد مشيدة. وقد أقام الفينيقيون مذابح بسيطة في الأماكن المرتفعة والطبيعية مكرسة خصيصا لتقديم القرابين لآلهتهم الكبيرة. وأهم مكونات المعبد الفينيقي هي سوره المقدس غير المسقوف، وفي وسطه يوضع مذبح للقرابين. وكان لابد للمعبد من نبع أو حوض مائي مقدس ومن غابة مقدسة. وكان المعبد يزين بأعمدة وأساطين. ويعد اتخاذ سور مكشوف بدلا من إقامة بناء واسع مسقوف من خصائص المعابد الفينيقية. إلا انه لم يبق من تلك المنشآت الدينية إلا معالم بسيطة في صور وبيبلوس وأوغاريت وعمريت وصيدا. فضلا عن صورها على نقود العصر الإمبراطوري الروماني. وكان يقوم على خدمة المعابد عدد كبير من الكهنة كرسوا حياتهم لخدمة الآلهة والإشراف على إقامة الشعائر الدينية. وكان الملك هو الكاهن الأعظم في المجمع الكهنوتي الفينيقي. وضم المعبد عددا آخر من الخدم مثل الحراس وأهل الحرف، وكذلك رقيق من الجنسين يقومون بالبغاء المقدس. وكان المعبد يستقبل القرابين والأضاحي التي يقدمها المؤمنون على شرف الآلهة طمعا في إرضائها والحصول على بركاتها. وكان يتم تقريب المواد الغذائية وبسطها وحرقها فوق المذبح.

وقد أقام الفينيقيون طقوسا دينية متنوعة، ولكن أكثرها إثارة للانتباه هي ما نسب لهم من تقديم الأضاحي البشرية على شرف أربابهم. فقد ورد في الروايات القديمة بأن التضحية بالطفل البكر كان عرفا جاريا لدى الكنعانيين منذ العصر العتيق. وقد تردد صداه في أقدم الأساطير الفينيقية التي تحدث عن قيام كرونوس بالتضحية بابنه وحرقه تشريفا لأبيه أورانوس. وكانت التضحية بصغاره المواليد تتم في مكان يسمى الطوفيت أشارت إليه أسفار العهد القديم في حوض بني هينوم قرب القدس. لقد برهنت آثار الطوفيت الذي كان يقع به حرق جثامين الضحايا بصور وبقايا العظام المحروقة في عدد من المواقع الفينيقية صحة ما نسب للفينيقيين في المصادر التاريخية وفي أسفار التوارة. واحتفظ الفينيقيون بلتك العادة إلى غاية العصور المتأخرة حتى أن فيلون البيبلوسي روى أنه كان من عادتهم في حالات الأخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم. وخلال نهاية القرن 4 ق.م لجأ سكان مدينة صور إلى نفس الشعيرة الدينية لمواجهة حصار الإسكندر لمدينتهم.

دفن الفينيقيون موتاهم في قبور متنوعة الأحجام والأشكال، ولكن المشهور عندهم هو اتخاذ قبور تحت الأرض. وتعود أقدم القبور الفينيقية المعروفة إلى مستهل الألف الثاني ق.م، وعثر عليها في بيبلوس. وهي عبارة عن آبار عميقة قد يصل عمقها إلى ستة أمتار. والمدخل الموصل إلى القبر كان عبارة عن بئر محفورة على بعد مسافة قليلة من حجرة الدفن. ويوصل بين البئر وحجرة الدفن دهليز ينزل في انحدار خفيف، ويلتوي على شكل قوس أثناء امتداده. وعادة ما يوجد دهليز آخر يلتقي بالأول والغرض منه ربط الدهليز الأول بحجرة جنائزية أخرى. وأقام الفينيقيون قبورا أخرى على شكل أفران الخبازين كشفت عنها حفريات كفر الجرة بلبنان، وتعود تلك القبور إلى النصف الأول من الألف الثاني ق.م. وهي عبارة عن قبور غير عميقة لها فتحات على شكل كوة تغلق بواسطة بلاطة حجرية كبيرة. والظاهر أن ذلك النوع من القبور قد تطور عن الدفن بداخل الكهوف الذي كان سائدا بالمنطقة منذ ما قبل التاريخ.

وكشفت حفريات رأس شمراء عن جانب آخر من العمارة الجنائزية الفينيقية خلال الألف الثاني ق.م، فقد وجدت آثار موائد الإهراق بقنواتها قرب مدخل القبر لكي يتلقى الأموات نصيبهم من القرابين. وكانت تلك القبور عبارة عن أقبية تتخذ تحت البيوت بباب يفتح في دهليز المدخل. وتتألف من رواق وغرفة دفن مستطيلة الشكل ومبنية بالحجارة ومسقفة ببلاط مسطح. وفي مرحلة لاحقة أصبحت القبور ملاصقة للمنازل، بحيث تتألف من دهليز صغير يتم النزول إليه بسلم، ويغطى الدهليز

ببلاط ويؤدي إلى حجرة الدفن بسقف معقود بارز فوق الدهليز. وقد حافظ الفينيقيون خلال المراحل الموالية من تاريخهم على مبدأ حفر القبور تحت الأرض. ولكن تلك القبور عرفت خلال الفترة المتأخرة من التاريخ الفينيقي بعض التغيرات كما يظهر من غياب الدهليز الوسيط الذي يربط قاع البئر بالغرف الجنائزية، بحيث أصبحت غرفة الدفن مطلة مباشرة على البئر، كما تعددت الغرف الجنائزية بالقبر الواحد.

وتمثل قبور صيدا أبرز نماذج ذلك التحول في العمارة الجنائزية الفينيقية. ففي تلك القبور عادة ما تقع غرفة الدفن على عمق متوسط، وتحفر الغرفة الجنائزية في الجدران القريبة من القاع. ويغلق البئر عند مستوى سطح الأرض ببلاطة مغطاة بتراب مع ترك كل عمق البئر فارغا أو ملئه بالصخور أو الحجارة. وفي جدران البئر أعدت حفر صغيرة أو نتوءات لتسهيل النزول إلى الداخل أو وضع عوارض من خشب للاستفادة بها وبحبال في نظام خاص لإدخال جثمان الميت إلى داخل القبر. وتميزت قبور العصرين الهلينستي والروماني بتراجع استعمال القبور العميقة، بحيث اقتربت حجرة الدفن تدريجيا من سطح الأرض، وأصبحت مسكنا أرضيا يتم الوصول إليه عبر سلم. كما ظهرت زخرفة جدران الغرف الجنائزية بالصباغة الزيتية. وقد امتاز الأثاث الجنائزي الذي وضعه الفينيقيون في قبورهم بالبساطة، فضم بعض الأدوات المنزلية التي كانوا يستعملونها كالأواني الفخارية والمصابيح الزيتية.

ظل العرف السائد لدى الفينيقيين هو دفن جثامين موتاهم بالطريقة العادية، وبوضعية يسجى فيها الميت في قبره مستلقيا على ظهره أو إحدى جانبيه. ولكنهم مارسوا بموازاة ذلك طريقة الدفن بواسطة الحرق الكامل لجثث الموتى، ودفنوا الرماد في القبور بعد أن وضعوها بأوعية خاصة. وعادة ما كان الموتى يدفنون في توابيت حجرية أو نعوش خشبية توضح فوق طبقة من الحصى، ويوضع حولها الأثاث الجنائزي من حلي وفخار وغيره. وكان يتم أحيانا وضع جثامين الموتى بداخل الغرف الجنائزية من دون تابوت مباشرة على الأرض المفروشة بطبقة من الحصى، ويسند رأس الميت بواسطة قطعة من الحجارة، ويوضع إلى جانبه الأثاث الجنائزي. وأحيانا كان يتم دفن الميت في حفرة منقورة في الصخرة على شكل حوض.

كان الموت محاطا بطقوس خاصة، وتبين من كل المقابر الكبيرة سواء كانت فينيقية أو متأثرة بالفينيقيين أن الموتى كانوا يعاملون بكثير من التقدير. وكان الفينيقيون يعتقدون بأن الشخص لا يفقد

لدى موته سوى الروح ويحتفظ في قبره بالقرب من جسده بنفسه المادية التي تحتاج لأن تآكل وتشرب، ولذلك حرصوا على تزويد القبور بأنواع الأقوات، ونقلوا المياه على داخلها عبر قنوات صغيرة. وكان الفينيقيون يعتقدون بوجود روح تفارق الجسم عند الموت وتستمر حية حياة بطيئة، واعتقدوا أن مصيرها متوقف على المصير الذي يؤول إليه جسد الميت في قبره. ولهذا كان من الأمور ذات الأهمية القصوى أن يحفظ الجثمان من كل ما يمسه. وتظل الروح تعيش، حسب اعتقادات الفينيقيين، في الريفاييم، أي الضفاف أو الظلال، طالما بقي الجسم سليما مودعا في القبر أو منزل الأبدية كما سماه الفينيقيون. ولهذا حرصوا على حفظ الجثمان في تابوت ووضعه في أعماق بئر عميقة أو في قبو أو كهف يتناولون مداخله بالتمويه لكي يظللوا نباشي القبور. ولأجل ذلك أثبتوا في شواهدهم الجنائزية عبارات تفيد بأن الميت لم يدفن معه كنز، وتحذر الأجيال المستقبلية من عواقب تدنيس القبور. وقد كان من عادة الفينيقيين تأثرا باعتقاداتهم في العالم الآخر تحنيط جثامين الموتى، وذلك على الأقل منذ القرن 5 ق.م مقلدين في ذلك الممارسات المصرية. وقد وجدت ببعض قبورهم آثارهم المواد الحافظة للجسم، ولاسيما بتابوتي اشمونعزر وتابينت المكتشفات بصيدا.

العقائد والمعبودات القرطاجية بشمال إفريقيا

اتسمت الديانة بالتنوع وتعدد الآلهة التي قدسها سكان قرطاج والمجال الإفريقي الذي كان تابعا لها. وقد أمكن التمييز في معبودات الفترة القرطاجية بين آلهة كبرى عرفت عبادتها انتشارا واسعا وبين آلهة أخرى صغيرة أو ثانوية. ويعد بعل حمون وتانيت من أكبر الآلهة التي عبدها القرطاحيون والأفارقة عموما، وخصصوا لها المعابد وسعوا لترضيتها بمختلف القرابين والندور، وأقاموا على شرفها عدة طقوس دينية. وكانت تانيت من أكبر وأقدم الربات التي عبدها سكان شمال إفريقيا عموما والمجال القرطاجي، حيث ترتبط عبادتها بالصريخ المسمى طوفيت والذي يعود إلى القرن 8 ق.م. ولكن ظهورها بكثرة يوافق نذور القرن 5 ق.م مما يعني بأنها لم تتبوأ موقعا مهما بين آلهة قرطاج إلا ابتداء من تلك الفترة. وقد انتشرت عبادة تانيت في مختلف المناطق التي امتد إليها النفوذ القرطاجي. وأصل عبادة تانيت بإفريقيا مازال من القضايا الغامضة في الديانة القرطاجية. فقد ظهر اسمها على نقائش فينيقية في الشرق تعود إلى القرن 8 ق.م. في حين ترجع آثار عبادتها في الغرب إلى فترات متأخرة، أي القرنين 5 و 4 ق.م. كما أن آثار الرمز المنسوب للربة في الشرق تعد أقدم بالمواقع اللبنانية والفلسطينة. بيد أن أكثر آثار عبادتها وجدت بالمجال الإفريقي خصوصا وبباقي مواقع غرب البحر المتوسط عموما، وهي تعد بالآلاف إذا ما قورنت بالعدد المحدود من الوثائق المكتشفة بفينيقيا. إلا أن غياب اسم الربة في أقدم الوثائق التي أشارت إلى الأرباب التي عبدها الفينيقيون مثل الألواح الدينية لرأس شمراء، ورسائل تل العمارنة، والأساطير الفينيقية التي نقلها فيلون البيبلوسي لا تحسم في شأن أصلها الفينيقي. والراجح أن تانيت تمثل امتزاجا حصل على الأرض الإفريقية بين ربتين فينيقية وليبية لا نعرف إسميهما.

وكان بعل حمون الملقب بالسيد من أكبر الأرباب التي عبدت بقرطاج ومجالها الإفريقي ومناطق نفوذها بغرب البحر المتوسط إلى جانب تانيت. وتعد دلائل عبادته بقرطاج لوحدها بالآلاف. ويتضح من خلال نتائج الأبحاث الأثرية أن عبادته تعود إلى الفترة المبكرة من تاريخ قرطاج، حيث يمكن إرجاع عبادته بها إلى القرن 8 ق.م. وعثر على آثار عبادة بعل حمون في معظم مواقع المجال القرطاجي بإفريقيا. كما عبده النوميديون المجاورون لقرطاج. واكتشفت آثار عبادته خارج شمال إفريقيا، في مالطا، وصقلية، وسردينيا.

ولم تتضح بعد هوية هذا الرب وأصل عبادته بالمنطقة خلال الفترة القرطاجية، فهو لم يظهر سوى على عدد محدود من الوثائق الفينيقية بالشرق، وخصوصا نقيشة زنجرلي المؤرخة بحوالي 825 ق.م. وبالمقابل تبقى آثار عبادة بعل حمون بإفريقيا التي تعد بالآلاف مقارنة بوثائق الشرق الفينيقي من أكثر الدلائل ترجيحا لنظرية ميلاد بعل حمون بإفريقيا نتيجة حصول تطور ديني تجهل طبيعته نجم عن اتصال الفينيقيين بالسكان الأصليين. ويكون نجم عن تعاظم مكانة رب معروف في فينيقيا أو ميلاد رب جديد نتيجة تفاعل ديني حدث بين رب فينيقي ورب محلي غير معروف.

لكن عبادة القرطاجيين والأفارقة للأرباب الفينيقية المشهورة في الشرق أمر لا يرقى إليه شك. فقد انتقلت عبادة الرب الفينيقي ملقارت إلى مناطق غرب حوض البحر المتوسط بموازاة مع حركة التوسع الفينيقي بتلك المناطق. إذ غالبا ما قرن الكتاب القدامى حركة الفينيقيين بإنشاء معابد ملقارت. أما بإفريقيا، فقد ارتبط ظهور ملقارت بمرحلة تأسيس قرطاج، إذ أخبرنا جوستينوس بأن زوج عليسا كان كاهنا لملقارت، وأن رفاق عليسا حملوا معهم المواد المرتبطة بعبادته، وأقاموا طقوسا على شرفه قبل انطلاق رحلتهم نحو إفريقيا. وتشير النصوص إلى مواظبة القرطاجيين على إرسال قرابين إلى معبده بصور، والمشاركة في الاحتفالات السنوية التي كانت تقام على شرفه في صور. وذكر ملقارت تحت اسم هرقليس في قسم حنبعل، وهناك نصوص تشير إلى زيارة حنبعل لمعبد ملقارت بقادس قصد التبرك به قبل الجواز إلى إيطاليا. أما بخصوص الدلائل المادية، فقد تبين من خلال النقائش وجود معابد خاصة بملقارت بقرطاج وكيرتا. وربما أقام القرطاجون على شرفه عيدا سنويا على غرار ذلك الذي كان ينظم في صور. ودخل اسم ملقارت في تركيب عدد مهم من أسماء الأعلام بقرطاج.

ونقل الفينيقيون عبادة إشمون إلى إفريقيا. ويتضح من الإهداءات وجود معبد له بقرطاج، ودخل اسمه في تركيب عدد كبير من أسماء الأعلام بالمدينة الإفريقية. وشبه إشمون بالربين أبلون وإسكولاب اللذان أشارت النصوص الإغريقية واللاتينية إلى عبادتهما بقرطاج. وكان إشمون ربا قديما بقرطاج، حيث يمكن إرجاع عبادته بها إلى الفترة العتيقة من تاريخ المدينة. رافقت الربة الفينيقية الكبيرة عشتروت حركة الانتشار الفينيقي بحوض غرب المتوسط، حيث وجدت دلائل عبادتها في سردينيا وصقلية وجنوب إيبيريا ومالطا. وترجع أقدم آثار عبادة عشتروت بقرطاج إلى القرن 7 ق.م، وربما أقدم من ذلك إذا صح أن اسمي جنون وفينوس اللتان أشارت إليهما النصوص التاريخية منذ فترة تأسيس المدينة يخفيان الربة الفينيقية عشتروت. بيد أن الدلائل المباشرة لعبادة الربة في النقائش البونية

بقرطاج تبقى محدودة إذا ما قورنت بأرباب أخرى، وإن كانت قد دخلت في تركيب عدد كبير من أسماء الأعلام.

عثر بقرطاج على نقيشة تشير إلى عبادة الإله الفينيقي شدرافه تؤرخ بالقرن 3 ق.م. ويحتمل عبادة هذا الرب أيضا ببعض المناطق الإفريقية التابعة لقرطاج. ويلاحظ أن اسم شدرافه لم يدخل إلا نادرا في تركيب أسماء الأعلام بقرطاج. ولا يبدو أن عبادة هذا الرب قد عرفت انتشارا واسعا بقرطاج أو بمجالها الإفريقي. إذ يمكن تفسير عبادة شدرافه بقرطاج بمحافظة بعض المهاجرين الفينيقيين على عبادة عرفت بالوطن الأم. ويعد بعل صافون من أقدم الأرباب الفينيقية. غير أن آثار عبادته بقرطاج تبقى لحد الآن نادرة، كما أدخل في تركيب عدد محدود من أسماء الأعلام بالنقائش البونية. ويعتبر بعل شميم ربا كبيرا في الشرق الفينيقي. أما بقرطاج، فإن دلائل عباته تبقى ضئيلة، ولا يوجد ما يدعو لاعتباره ربا كبيرا بقرطاج، أو الإعتقاد بأن عبادته عرفت انتشارا مهما بالمجال الإفريقي. وتعود آثار عبادة الرب شمس بفينيقيا إلى نهاية القرن 8 ق.م وبداية القرن 7 ق.م. أما بقرطاج فقد عثر بإحدى النقائش على اسم علم بمعنى"خادم معبد شمس" الأمر الذي يوحي بوجود عبادة لذلك الرب الفينيقي. وكان رشف من بين أقدم الأرباب بالساحل السوري الفلسطيني. أما بقرطاج فلا توجد إشارات صريحة تؤكد عبادته بها إذا استثنينا اسم علم يتضمن معنى "خادم رشف". ويبقى هناك غموض كبير يطرح مسألة تاريخية إدخال ذلك الرب الفينيقي إلى قرطاج ومجالها الإفريقي.

وقد أمدتنا النقائش البونية بأسماء الأرباب الثانوية ذات الأصل الفينيقي التي عبدت بقرطاج وبمجالها الإفريقي وعرفت فقط من خلال أسماء الأعلام. و من بينها أريش وميسكر وبعل مجنم وسيد وسكون وآخرون. وفضلا عن تبني عدد من الأرباب التي أدخل الفينيقيون عبادتها إلى المنطقة، فقد تمسك قسم من البلاد الإفريقية بتقديس معبودات محلية. فقد أشار هيرودوتوس خلال القرن 5 ق.م إلى أن الليبيين المجاورين لبحيرة تريتونيس كانوا يقربنون لأثينا وتريتون وبوزيدون. وأورد المؤرخ الإغريقي معلومات تثبت أصالة تلك الأرباب عند الليبيين، فأثينا- حسب أقوال الليبيين- هي ابنة بوزيدون وربة بحيرة تريتونيس. وأضاف هيرودوت أن الأمر يتعلق بالربة التي يسميها الإغريق أثينا. وورد في نص رحلة سكيلاكس المزعوم أنه كان للربة معبد ببحيرة تريتونيس، وذكرت المصادر بأنها ولدت بالمنطقة، وأنها لقبت بتريتونيس بسبب مولدها هناك. وهذا يبين أنه كان للربة اسم محلي لم

يذكره القدامى بسبب اكتفاء الكتاب الإغريق واللاتينيين بإسقاط أسماء أربابهم على أرباب البلاد الأخرى.

أخبرنا هيرودوت بأن الإغريق تعرفوا على بوزيدون عن طريق الليبيين. وجاء عند أفلاطون نقلا عن صولون- الذي تلقى معلوماته عن كهنة مصر- أن جزيرة الأطلنتيد كانت من نصيب الرب بوزيدون لما قسمت الآلهة الأرض بالقرعة، وتحدثت الأسطورة عن معبده، وكونه زوج ليبيا. كما أشار هوميروس إلى عبادة الإثيوبيين لرب محلي يدعى بوزيدون. كما تمسك السكان الأصليون كذلك بالاعتقادات المرتبطة بعبادة قوى الطبيعة. فقد أخبرنا هيرودوتوس في خضم حديثه عن ديانة السكان المجاورين لبحيرة تريتونيس بالسرت الصغرى إلى أن كل الليبيين يقدمون القرابين للشمس والقمر. كما ذُكر القمر والشمس والأرض والأنهار والبحيرات من ضمن القوى الإلهية التي باركت معاهدة حنبعل مع فيليب المقدوني. وأشار بلوتارك إلى أن قسما من الكتب البونية كانت تحث على عبادة القمر لأنه وحده من بين المعبودات الأخرى الذي ينظم حياة البشر. ولا شك أن الليبيين كانوا يقدسون أربابا أخرى لم يصلنا عنها شيء. ولا يستبعد أن جذور الأرباب التي عرفت بالمنطقة خلال فترة الاحتلال الروماني ترجع إلى الفترة القرطاجية. فقد أمدتنا النقائش اللاتينية ببعض أسماء الأرباب التي عبدها الليبيون خلال العصر الروماني وخصوصا في مواقع كانت تشكل جزءا من مجال التأثير القرطاجي. مثل نقيشة ونصب باجة اللذان نقشت عليهما سبعة أرباب، والرسم الجداري بشمتو الذي يصور ثمانية أرباب، وكذلك رسم جداري آخر بهنشير أولاد عبيد ظهرت عليه ثمانية أرباب، ثم رسم جداري آخر وجد غرب برج هلال يصور كذلك ثمانية أرباب. هذا فضلا عن تشخيصات هنشير رمضان ومجيفا.

وساهم انفتاح قرطاج على العالم الخارجي في إدخال عبادة بعض الأرباب الأجنبية إلى المدينة وربما إلى البلاد الإفريقية ولا سيما الأرباب الإغريقية والمصرية. فقد تحدث ديودوروس الصقلي عن إدخال عبادة الربتين الإغريقيتين ديميتر وكوري إلى قرطاج حوالي 396 ق.م، وذكر أن الإغريق جعلوا من خيرة مواطنيهم كهنة للربتين، حيث رفعت لهما التماثيل بقرطاج حسب العادة الإغريقية،. ويرجح أن تأثير العقائد المصرية قد امتد إلى المناطق الخاضعة لقرطاج كما يظهر من عبادة الربة إيزيس التي دخلت في تركيب عدد مهم من أسماء الأعلام. فضلا عن وجود نقيشة تؤكد وجود معبدها في قرطاج. وتكشف كثرة صور ورموز الأرباب المصرية على المواد الجنائزية والنذرية القرطاجية

عن انتشار واسع للممارسات السحرية المصربة، ولا سيما تلك المرتبطة باستعمال الجعلان في الأغراض الحمائية.

أقام القرطاجيون طقوسهم الدينية بمعابد مشيدة. وهناك إشارات مقتضبة في بعض المصادر حول وجود معابد بقرطاج وأوتيكا. لكن تلك المعالم لم تترك آثارا ذات بال في المواقع الأثرية. ومن أبرزها بقايا معبد مكون من ساحة ومصلى بمنطقة رأس الدرك غير بعيد عن قرطاج، بالإضافة إلى بقايا معبد كركوان المؤرخ بالقرن 3 ق.م، والمكون من عمودين ورواق مربع الشكل يقود إلى ساحة كبيرة بها مذبح ودكة المصلى. أما بقرطاج، فإن البقايا لا تتعدى بعض اللقى المعزولة التي أولت بأنها بقايا معابد. ويرجح بأن معابد المجال القرطاجي بإفريقيا قد بنيت على الطراز الفينيقي، وأن القرطاجيين شيدوا معابد شبيهة بالمعابد الفينيقية بعد أن نقلوا معارفهم حول تلك المعابد إلى المناطق التي استقروا بها. كما أقام القرطاجيون شأنهم في ذلك شأن الليبيين معابد في المناطق الطبيعية المقدسة لديهم.

لقد أنجز القرطاجيون في أماكن العبادة مختلف أنواع الطقوس الدينية. ولكن أكثر تلك الشعائر غرابة هي عادة تقديم القرابين البشرية في مكان يدعى طوفيت، وهي العادة التي وصفها المؤرخون الإغريق واللاتينيون في مؤلفاتهم. وترجع أقدم إشارة بهذا الخصوص إلى القرن 5 ق.م، حيث أشار جوستينوس إلى قدوم بعثة من الملك الفارسي داريوس إلى قرطاج لحث القرطاجيين على ترك تقديم الأضاحي البشرية. كما قدم ديودوروس الصقلي تفاصيل حول تلك الممارسة لما تحدث عن تقديم القرطاجيين لأضاحي من الأطفال الصغار على شرف الرب ساتورن، أي بعل حمون، مع نهاية القرن 4 ق.م للتكفير عن الذنوب ولمواجهة النوائب التي حلت بمدينتهم. وأخبرنا كينت قورس بأن القرابين البشرية ظلت تمارس بقرطاج إلى غاية سقوطها بيد الرومان. كما تحدث بلوتارك عن نفس الممارسة، ونفس الطقوس المصاحبة لها مثل التزام الأمهات بعدم النواح بغية نيل الحظوة التي أقيم لأجلها الطقس. وذكر أوزيبيوس بأن الأطفال كانوا يقدمون بقرطاج كقرابين على شرف الرب كرونوس، وأضاف كيكرون بأن تقديم القرابين البشرية كان شائعا عند القرطاجيين. بينما ذكر ترتوليان بأن الأضاحي كانت تقدم للرب ساتورن. وأخبرنا بلينيوس الشيخ بأن القرطاجيين كانوا يقيمون طقسا سنويا يتم خلاله تقديم قربان بشري على شرف الرب هرقل. ويبدو أن تقديم الأضاحي لم يكن مقتصرا على الأطفال، حيث قدم القرطاجيون أحيانا قرابين من بين البالغين. وقد انطلق تأويل البقايا المادية بعد

اكتشاف ضريح صلامبو بقرطاج، والعثور على آلاف الأرنات التي تحوي بقايا عظام محروقة. وجرى نقاش طويل بين المؤرخين المعاصرين. فهناك من اعتبر بقايا العظام المحروقة دليلا ماديا يثبت صحة الروايات التاريخية بشأن وجود ضريح مخصص لتقديم ذبائح من صغار الأطفال على شرف بعل حمون وتانيت. ويبدو أن إقامة هذه الشعيرة قد تم منذ فترة مبكرة بقرطاج، حيث تعود آثار الطوفيت إلى القرن 8 ق.م. وتواصلت ممارسة تلك الطقوس على امتداد التاريخ القرطاجي. وانتشرت في مناطق أخرى تقع خارج قرطاج، حيث عثر على بقايا الطوفيت المخصص لتقديم الذبائح في عدد من المواقع الإفريقية. وتركز مجال الطوفيت حسب المعطيات الأثرية على قرطاج ومواقع تقع بداخل البلاد، بينما يبقى وجوده غامضا بالسواحل ولاسيما بالساحل الشرقي التونسي إذا استثنينا طوفيت حضرموت بسوسة. وإذا كان تجانس النصوص التاريخية التي تحدثت عن ممارسة القرطاجيين لتلك الشعيرة أمر لا يمكن إنكاره من منطلق أن القدامى لا يمكنهم الاتفاق على اختلاق الوقائع التي رووها، وإن اختلفوا حول تفاصيل إقامتها، فإن المؤرخين المعاصرين لا يكادون يجمعون على رأي بخصوص انتظام تلك العادة وبذلك الشيوع والانتشار الذي توحي به النصوص القديمة وبقايا العظام المحروقة بالأوعية. ولكن الاتجاه السائد هو إنكار تقديم ذبائح من صغار الأطفال أحياءا إلى الأرباب والاعتقاد بأن المكان المسمى طوفيت كان في الأصل عبارة عن مدفن مخصص لدفن الصغار الذين يموتون بشكل طبيعي. وأكدت النصوص التاريخية والوثائق الأثرية بأن الفينيقيين قد مارسوا في موطنهم تلك الشعيرة الدينية. وبذلك لا نجد مناصا من أن ننسب للفينيقيين إدخال طقوس تقديم القرابين البشرية إلى قرطاج.

وعرفت العمارة الجنائزية خلال الفترة البونية تنوعا واضحا في الأنماط المعمارية للقبور المستعملة في الدفن، بحيث يكون من الصعب ربط نمط معين من القبور بمجموع الساكنة التي استوطنت ذلك المجال الشاسع. ذلك أن كل منطقة كانت تختار طريقة معينة وأحيانا عدة طرق لإقبار الموتى. لقد استعمل القرطاجيون القبر ذو الجب، وهو قبر منقور في الصخر ومزود بجب عميق مستطيل أو مربع الشكل يؤدي إلى مدخل الغرفة الجنائزية. انتشر القبر ذو الجب بالأساس بقرطاج، وأوتيكا، وحضرموت. لكن التحريات الأثرية أثبتت استعماله في عدة مواقع بالساحل الشرقي التونسي وبشمال غرب تونس وبوسط البلاد. أرخت أقدم القبور ذات الجب بقرطاج بالقرن 7 ق.م. ولعلها ترجع إلى القرن 8 ق.م بحكم قدم استقرار الفينيقيين بالموقع. ويمثل هذا القبر الطراز المعماري المميز للعمارة الجنائزية في الشرق الفينيقي، ولذلك فإن استعماله بقرطاج وببعض مناطق مجالها الإفريقي

يمثل جانبا من تأثير العمارة الجنائزية الفينيقية. ويعد القبر على شكل قبو من أكثر أنواع القبور انتشارا بالمجال القرطاجي، وهو قبر تحت أرضي مزود ببئر للنزول يتميز بوجود درج منقور في الصخر ودهليز أو سرداب ورواق يقود إلى مدخل الغرفة الجنائزية. والقبر على شكل قبو معروف في فينيقيا، حيث عوض القبر ذو الجب في المراحل المتأخرة من التاريخ الفينيقي. ويتضح من خلال مقارنة الأقبية بمختلف المقابر الليبية وجود صلة وثيقة بينهما مما يرجح استمرار عناصر العمارة الجنائزية الليبية في الأقبية من خلال امتزاج عناصر معمارية فينيقية وأخرى ليبية.

وجد بالمجال القرطاجي نوعا آخر من القبور، هو عبارة عن حفرة تقع على أعماق متفاوتة من سطح الأرض، وتكون مغطاة أحيانا بكتل حجرية مستوية. ويؤرخ ذلك القبر بقرطاج بالقرن 7 ق.م. وبينت التحريات الأثرية بأنه انتشر في معظم المواقع الإفريقية. لكن ذلك القبر الذي استعمل في فينيقيا لا يعد خاصية فينيقية، إذ شاع استعماله تقريبا عند معظم شعوب العالم القديم منذ ما قبل التاريخ بما في ذلك بشمال إفريقيا. ودفن سكان المجال القرطاجي موتاهم أيضا في قبور منقورة على سطح الصخور، وهي عبارة عن حفر تقع على أعماق متفاوتة من سطح الأرض، وتكون مغطاة أحيانا بكتل حجرية مستوية. كما وجدت آثار الأحواض المنقورة على سطح الصخور في قرطاج وفي عدة مواقع بمجالها الإفريقي. ويظهر من الانتشار الساحلي لذلك القبر أنه أدخل إلى شمال إفريقيا القديم بتأثير فينيقي. وفضلا عن القبور المحفورة في الأرض والمنقورة في الصخور، استعمل القرطاجيون القبور المبنية. وكان القبر المبني مطمورا بالكامل تحت الأرض، وقد يكون جزء منه بارزا على سطح الأرض. ويتميز عن باقي القبور التي استعملت خلال الفترة القرطاجية بكونه مبني بالحجارة أو مواد أخرى وليس منقورا في الصخر أو محفورا في التراب بالكامل بل يكون جزء منه فقط منقورا في الصخر. تعود القبور المبنية بقرطاج لفترة تقع بين نهاية القرن 8 و بداية القرن 7 ق.م. ويرجح أن القرطاجيين قد واظبوا على بناء قبورهم المشيدة على الطراز الفينيقي، حيث استعملت القبور المبنية في فينيقيا منذ فترات سابقة على بداية التوسع الفينيقي بغرب البحر الأبيض المتوسط.

وفضلا عنه القبور ذات الأصول الفينيقية، حافظ قسم من البلاد الإفريقية التابعة لقرطاج على القبور الليبية العتيقة مثل الدولمن والحوانيت والتملوس والبازينا. فقد وجدت آثار آثار الدولمن في عدة مواقع بالمجال الإفريقي الذي خضع للحكم القرطاجي، وخصوصا بالساحل الشرقي التونسي، ورأس بون، وبوسط وغرب تونس. وتعد الحوانيت شكلا عتيقا من القبور الليبية السابقة زمنيا على مجيء

الفينيقيين إلى المنطقة. وهي من أكثر أنواع القبور انتشارا بالبلاد الإفريقية التي خضعت للحكم القرطاجي. ويبدو أن للتوزيع المجالي لانتشار الحوانيت دلالة فيما يتعلق بقدمها وأصالتها بالمنطقة، فالملاحظ أن الحوانيت لا توجد بالمناطق التي أشارت المصادر التاريخية إلى قدوم الفينيقيين إليها مثل قرطاج وأوتيكا وحضرموت. وتعد التملوس من أكثر القبور قدما وانتشارا في شمال إفريقيا والصحراء. أما بالمجال القرطاجي، فقد وجد التملوس في عدة مناطق من بينها بنزرت وبالشمال الغربي لتونس فضلا عن مواقع الساحل الشرقي وبداخل البلاد. وعرف استعمال الصباغة الجسدية انتشار واسعا في معظم المواقع الإفريقية كما يتضح من اكتشاف بقايا تلك المواد في قرطاج وفي مواقع الساحل الشرقي التونسي وبداخل البلاد. ويمكن اعتبار استعمال الصباغة الجسدية استمرارا لطقوس ليبية عتيقة، فقد استعمل الليبيون الصباغة الجسدية منذ ما قبل التاريخ. وبالمقابل لم يحاول سكان المجال القرطاجي تحنيط جثامين موتاهم على غرار الفينيقيين، إذ لم يثبت أن بقايا السائل الصمغي التي وجدت بعظام بعض الجثث بقبور قرطاج قد استعملت لنفس الغرض.

وتميزت طرق الدفن بالمجال القرطاجي بالتنوع. ويمثل الدفن العادي أكثر الطقوس الجنائزية انتشارا بالمنطقة. ونميز فيه بين عدة طرق ووضعيات لإسجاء الميت في قبره. ويلاحظ غياب وضعية الثني الجنيني بقبور قرطاج، مقابل تركزها بالمناطق الساحلية وبداخل الأراضي أحيانا. ويمكن اعتبار تلك الطريقة في الدفن استمرارا للعادات الجنائزية الليبية القديمة.أما فيما يخص وضعية الثني الجانبي، فلم توجد دلائل إتباعها في قرطاج، بينما انتشرت في معظم المناطق الإفريقية الأخرى، ولاسيما بأقبية الساحل الشرقي وبالقبور الليبية. ولا شك أن ذلك كان استمرارا لعادات عتيقة تعود عند الليبيين إلى ما قبل التاريخ. ويلاحظ بأن وضعية الاستلقاء على الظهر كانت متبعة بالمدن التي استقر بها الفينيقيون مقابل ندرتها باقي مواقع المجال الإفريقي التابع لقرطاج. ويبدو أن الدفن بوضعية التمدد أو الاستلقاء لم تكن الطريقة المفضلة بمعظم مناطق المجال الإفريقي. ولا يستبعد أن الدفن بتلك الطريقة قد نجم عن تأثير الطقوس الجنائزية الفينيقية. وإلى جانب الدفن العادي، انفردت بعض مناطق المجال القرطاجي باتباع طريقة الدفن بالترميد من خلال حرق جثامين الموتى بالكامل لتتحول إلى رماد يوضع قي مرمدات. وتعتبر بقايا العظام المحروقة في قبور قرطاج العائدة إلى القرن 7 ق.م بمثابة دليل مادي على ممارسة حرق جثث الموتى بقرطاج. ولا يستبعد أن الفينيقيين هم من أدخل تلك الشعيرة الجنائزية إلى مناطق غرب البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك بعض أنحاء شمال إفريقيا القديم.

الطقوس الجنائزية لدى مجتمعات شمال إفريقيا خلال الفترة القرطاجية

هل الطقوس وعادات المجتمعات القديمة ذات أصل ديني أم سحري ؟ خاصة وأنها تؤدي إلى ما كانوا يدعونه بالمقدس (Le sacré) هكذا لا يمكن التمييز بينها. ولضمان اتصال مباشر مع هذا المقدس، لا بد من ربطه بعناصر الحياة اليومية : الجمال، القبح، الشكل الإيحائي.تظهر الطقوس أساسية في كل العصور والأديان وتلازم الإنسان منذ ولادته ونشأته إلى أن توافيه المنية ويدفن. هكذا يبدو الإنجاب في كل مكان وزمان حادثا بدئيا محاطا بعدة طقوس يبقى الهدف منها تسهيله وإبعاد كل أنواع الأخطار التي يمكنها أن تحدق به. وقبل الميلاد أيضا، أي خلال فترة الحمل، نجد عدة طقوس زاخرة بالرموز تعتبر رابطا رمزيا يربط بين المرأة النفساء والأرض. أما الموت والدفن في اعتقاد القدماء فهو عبارة عن عودة إلى " بطن" الأرض. في حين يعتبر المولود الجديد كائنا ضعيفا معرضا لتأثيرات سلبية، وخاصة الأرواح الشريرة. ولوضع سد منيع ضد هذه العناصر الخطيرة كان لا بد من استعمال الطلاسم من أدوات حديدية وملح وغيرها. كما أنه إبان فترة الرضاع كانت لدى المجتمعات القديمة عموما عادة تحريم العلاقات والاتصالات الجنسية. أما خلال النشأة فنجد المؤرخ هيرودوت (Hérodote) من أهل القرن 5 ق.م. مثلا، يشير إلى عادة بعض الشعوب والمتعلقة بالختان، ويذكر ما معناه أنه فقط من بين كل الأمم مارس الكلدانيون والمصريون والأثيوبيون الختان منذ عهود سحيقة. وأخيرا خلال الموت أو بعده تمارس على الفقيد طقوس تختلف حسب عادات الأمم وطبيعة الحضارات. فماذا نعرف عن طقوس الموت وما يرافقها عند القرطاجيين ومن تأثربهم من ساكنة شمال إفريقيا ؟ هذا ما سنعرض له في موضوعنا، والذي سنقسمه إلى نوعين من الطقوس : طقوس التكفيرية، ثم طقوس الموت والدفن.

تبقى أهم الطقوس والأكثر تداولا عند المجتمعات القديمة هي طقوس التضحية والذبائح للآلهة وللقوى الخفية إضافة إلى طقوس الموت والدفن التي سنعرض لها في حينها. كانت تدخل هذه التضحية في إطار ديني محض وخاصة البشرية منها باعتبار أن الكهنة هم من كانوا يؤطرونها. فحسب كاكو (Caquot) تم العثور بمعبد الإلهة تانيت(Tanit) القرطاجية بموقع سالمبو (Salômbo) بقرطاجة على أدلة أثرية تثبت ذلك، وخاصة تقديم الأطفال والأسرى قرابينا وذلك تقربا إلى القوى الإلهية، وهي

المشهورة باسم "مُلك" (Molk) "فمُلك" هذا يَعد بالسعادة، والعائلة تنتظر من التضحية له تحسين نسل القطيع وإنتاجا جيدا للحقول إضافة إلى التكفير عن الأخطاء والذنوب.

رغم ذلك لم يكن الهدف من التضحية بالأطفال عند القرطاجيين ما ذكرناه فقط. فقد كانت تمارس نفس الطقوس أيضا إثر الهزائم العسكرية، حيث ذكر لنا ديودور الصيقلي (Diodore de Sicile) ما معناه أنه بعد هزيمة القرطاجيين مع "أكاتوكل" (Agathocle) اليوناني سنة 310ق.م. ضحوا بعدة أطفال ظنا منهم أن سبب الهزيمة كان غضب الآلهة. كما كان يُضَحَّى بالأطفال أيضا في حالة الأخطار الكبرى، وخاصة للإله بعل حمون، حيث كان يوضع يوميا ما يقارب 300ضحية بين يدي التمثال ثم يحرقون عن آخرهم. وحسب ما جاءنا به الباحث بيكار (Picard) فقد كان يُصفى فقط لهذا الطقس أبناء الأعيان إلى أن صار هؤلاء مع مرور الزمن يرفضون منح فلذات أكبادهم متبنين مقابل ذلك أبناء الفقراء، أو يشترون الأطفال سرا بدعوى أنهم أبناءهم ثم يطبقون عليهم الطقس.

يمكن انطلاقا من بعض المعطيات الأركيولوجية إعطاء صورة واضحة لهذه الممارسات. فقد أفادتنا النقائش الجنائزية في معرفة هذا الطقس حيث يعلو الذبيحة نصب كتبت عليه العبارة التالية : "إلى الربة تانيت بني بعل". كما تم الكشف بقرطاجة على عظام آدمية وحيوانية.

يتخلل طقس الذبائح البشرية ترديد أناشيد وترانيم بهذه المناسبة، بصخب الأبواق والصنوج التي تغطي عويل الضحايا. وحتى أمهاتهم يحضرن الواقعة دون أية جلبة ولا دمعة خوفا من اتهامهن بالكفر وبالتالي فقدان فضل الآلهة. يبدأ الطقس بمحاورة مباشرة مع الآلهة مفادها : " إلى الربة تانيت بني بعل وإلى الرب بعل حمون، تقدمة من فلان بن فلان، فلتباركه الآلهة". ثم يطلب القرطاجيون خلال هذه الترنيمة مساعدة الإله عبر هذه العبارات :

وداعا أطفالنا الأعزاء !
صلوا للآلهة حين ستعرجون إلى السماء.
الويل لكم.
هل تسمع صوتنا يا ملوك ؟ (... !)
فضلك علينا يا ملوك .
أجز حياة أطفالنا.
يا إلها يا سفاكا.

لكن ممارسة الذبائح خفت بعد القرن 4 ق.م. كما تم تعويض الأطفال بالحيوانات في هذا النوع من تضحيات الافتداء، إلا أنها حافظت على اسم مُلك حتى العهد المسيحي.

مارس القرطاجيون أيضا احتفالات الخصب رغبة منهم في إدماج الشباب في المجتمع، حيث تتضمن إعادة ميلاد الطبيعة. وعادة ما يمارس خلال هذه الطقوس زواج مقدس ثم موت الملك وذلك لتجديد طاقات الجماعة والطبيعة ونعلم بانتحار عليسا مُؤسسة قرطاج بارتمائها في محرقة خلال حفل ذو صبغة جنائزية وتكفيرية. وما أسطورة انتحارها إلا ذكرى ربما للتضحية البشرية.

بالنسبة للعادات الممارسة في هذا الإطار، فقد كانت المشكلة الكبرى عند القدماء، هو أن يكون للميت قبر لائق به. فقد أثبتت طقوس الدفن القديمة وجود عبادة الموتى باعتبار القدماء أن القبر مأوى أبديا يجب الاعتناء بعمقه وبمظهره. وفي هذا الشأن أفادنا هيرودوت بما يلي : "كان الناسمون (شعب ليبي) يشاورون أسلافهم حول المستقبل بنومهم فوق قبورهم. كما كانوا يقسمون اليمين بجوارها".

ويلاحظ أن هذه الظاهرة ما زالت منتشرة إلى عهدنا وإن اختلفت الظروف والوسائل والأهداف. وتعطي عدة مؤشرات فكرة توحي بأن المقابر كانت تمثل للبونيين (عناصر نتجت عن امتزاج الفينيقيين بالأمازيغ في العهد القرطاجي) نطاقات مقدسة، لذلك لا يجب أن تنتهك حرمتها. ففي غرب المتوسط كان من الأليق إزاحتها إلى ضاحية المدينة حيث تتنوع طريقة انتشاها حسب المواقع . بقرطاج، وحفاظا على وحدتها، كانت تمتد المقابر تقريبا على شكل أقواس متركزة حول النواة الحضرية، وبعيدا عن المدينة كانت عملية تحريف الجثث في بعض الأماكن بالقبر، ويمكن أيضا أن توضع في محراق (Ustrinum) دون وجود أي تفسير لهذا الوضع.

كانت الطقوس الجنائزية متعددة، لكن أغلبها فُقد، وحسب عدة إشارات يمكن القول أن الجنازة كانت على شكل حفل، مثلا : موكب مأتمي مع نائحات وبخور وكسر للأواني وتضحية حيوانية ثم وجبة مأتمية.

والملاحظ أن هذه العادة الأخيرة ما زالت تمارس إلى عهدنا هذا في أغلب جوانبها. لقد جعل الاعتقاد بالعالم الآخر القدماء يزودون المقابر باللوازم الضرورية والتماثيل الممثلة للقوى الإلهية. فجميع الحضارات القديمة كانت لها نفس الطقوس، ففي بابل مثلا كشفت الحفريات عن عدة مقابر فيها أطباق الطعام وملابس وحلي وعدة الحرب، وترتفع قيمة هذه المحتويات حسب مكانة الميت الاجتماعية.

وبشمال إفريقيا وبالقرب من الموتى المدفونين كانت توضع أدوات متنوعة بعضها ينتمي للميت وأخرى تقتنى، وخاصة الخزفيات التي تكون أحيانا مع نقيشة. إضافة إلى المحتويات الجنائزية داخل القبور، نجد النصب الجنائزية، فحسب الباحثة UBERTI M..C فإنه يكاد يصعب التمييز بشمال أفريقيا بين هذه النصب، إلا أنها في الغالب تصنف إلى صنفين : نذرية وجنائزية.

يوجد بشمال أفريقيا حوالي 8000 نصب تمجيدا الإلهين بعل حمون وتانيت، عليها صور أطفال ضحايا مُلك، أو صور حيوان خاصة الكبش المعوض للأطفال. ثم هناك مرمديات التضحية داخل المعبد في سور مقدس. وحتى بعد سقوط قرطاج بقيت تنصب النذر إلى غاية القرن 1 م، وحتى القرن 4 م. وفي بعض الجهات، لكن يشق علينا معرفة قيمة ا لزخارف الرمزية.

غالبا ما تكون من الكلس الأبيض أو الرمادي لها قمة مثلثة وبها تقريبا نفس الزخرفة حيث يظهر آدمي رافعا كفه اليمنى رمزا لبركة السماء ويحمل كفه اليسرى إناء ملتصقا ببطنه. قبل نهاية القرن 5 ق.م. كان الدفن والترميد أهم العادات الجنائزية بالمقابر البونية الغربية. وقد كانت العادة الأولى هي السائدة قبل أن تعوض بالترميد، والذي ربما أخذ حسب بيكار، عن الإغريق الذين كانوا يعتقدون بأن الروح تستطيع في الوقت الذي ستخرج فيه من النار الصعود إلى الأجواء. لكن هذه العادة معروفة عند أغلب المجتمعات القديمة وليست حكرا على حضارة دون الأخرى لهذا لا يمكن الحصر أن عادة الحرق البونية ذات أصول إغريقية.

نعرف أحسن تقاليد الدفن لدى القرطاجيين وفي كل شمال إفريقيا، لكن إذا كانت تعطينا الأركيولوجيا معلومات حول شكل القبور ومحتوياتها وكذا نمط الدفن، فهي لا تساعد على معرفة المعتقدات المتعلقة بمصير الموتى، ويمكن اعتبار الدفن على الشكل الممدود بالقبور القرطاجية كتطور للطقوس الجنائزية لدى الساكنات الحضرية، لكنه أقل تطورا بالمغرب القديم، فدائما تكون الأجساد مضطجعة والرأس عادة في اتجاه غرب–شرق

بالنسبة للموتى من الأطفال فقد كان يتم دفنهم داخل جرار، لأنهم إذا بقيت جثثهم سليمة سوف يبعثون حسب اعتقاد القرطاجيين، مما يعكس خوفهم على موتاهم الصغار من الأرواح الشريرة وبلاوي الأرض. وهذا ما يتنافى تماما مع عاداتهم في تقديم الذبائح من الأطفال للإله مُلك.

فأية مفارقة غريبة جاءنا بها تاريخ وحضارة القرطاجيين في هذا الشأن ؟ في هذه الحالة كانت العظام المحروقة والمكسرة أو المغربلة تدفن في الأرض أو توضع في معاظم طينية أو خشبية. مورست عادة الترميد بقرطاجة بكثافة خلال القرن 4ق.م. لكن تم العثور فقط بالقرب من قبور المدينة (Byrsa) على الفحم الخشبي وشقوق الأواني. وفي هضبة "برسا" هناك مؤشرات وعلامات توحي بأن طعاما كان قد أكل فوق قبر ميت.

مثل باقي المجتمعات القديمة، مارس القرطاجيون عدة طقوس تتعلق بالموت والتضحية للقوى الخفية والآلهة. وقد أثروا بذلك على المجتمع الأمازيغي المحلي خالقين تلا قحا حضاريا اتضح لنا من خلال طقوس الذبائح التي لا يمكن استثناء أغلب جهات شمال إفريقيا عن هذه الممارسة. وإن غابت عنا الأدلة الملموسة. هذا بالإضافة إلى الطقوس الجنائزية ذات الشبه الكبير وخاصة ما يتعلق بالموكب الجنائزي وتزويد المدافن باللوازم التي قد يحتاجها الفقيد في حياته الأخرى. كما ظهرت النصب الجنائزية بشكل مكثف خلال أبحاث أثرية وأماطت اللثام عن جانب هام من حضارة القرطاجيين المرتبطة بعقيدتهم وتفكيرهم ونظرتهم للعالم الآخر. قبل الختام يجب الإشارة إلى أن عادة الذبائح لدى القرطاجيين لم تكن ربما حسب ما ذهب إلى ذلك عدة مفسرين لهذه الظاهرة، سوى طريقة وأسلوبا ناجعين لتحديد النسل وتنظيم الأسرة ! لكن يصعب تبني هذه الفكرة في غياب أدلة ملموسة، خاصة أن الطقس كان يمارس بالأساس على أبناء الأرستقراطية، دون أبناء العامة من المجتمع القرطاجي.